# الإسلام: دعوة للتسامح والحوار

د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور *

الإسلام هو دين الله الخاتم، ووحيه الجامع لكل ما أنزله الله من الهدى والحق إلى البشر، وقد تضمن أكمل ما جاء في رسالات الأنبياء السابقين، ثم تضمن -كذلك- من الكمال والخصائص ما يتلاءم مع كونه آخر الرسالات الإلهية إلى الخلق، ولا غرابة -إذن- أن يقول الله عن القرآن الكريم الذي هو معجزة الإسلام الكبرى: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾[النحل: ٨٩] ثم أن يقول عن الإسلام: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾[المائدة: ٣].

وقد كان من أهم خصائص الإسلام أنه يتوجه بدعوته إلى البشر جميعًا، فهو رسالة عالمية ليست محصورة في جنس من الأجناس، ولا في قوم من الأقوام، ولا في زمن من الأزمان، وقد تعلَّم المسلمون ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية منذ عهد الإسلام الأول، فالقرآن يقول للرسول -ρ- ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾[الأعراف: ١٥٨] ويقول: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾}[الفرقان: ١] وتوجه الخطاب فيه في آيات كثيرة إلى الناس والإنسان وبني آدم، وجاءت هذه الآيات في سور نزلت بمكة في السنوات الأولى لنزول الوحي على الرسول، حينما كان الإسلام يعاني من الاضطهاد والحصار ومحاولات القضاء عليه، مما يدل على أصالة هذه العقيدة ورسوخها، وقد تضمن حديث الرسول -ρ- كثيرًا من الأحاديث الدالة على ذلك، ومنها قوله في الحديث عما خصه الله تعالى به من الخصائص التي لم تكن لغيره من الأنبياء السابقين " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة" وجاء في رواية الإمام مسلم"... وبعثت إلى كل أحمر

* كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة

وأسود"[1].

وقد جاءت رسالة الإسلام ذات طابع إنساني أخلاقي فَدَعت إلى خير البشرية، وعملت على تحقيق كرامة الإنسان، وتحريره من الظلم والعبودية والاستبداد والخضوع لغير الله تعالى، وقد تضمنت من التشريعات ما يكفل العدل، ويقاوم الظلم والعدوان، ومما يدل على ذلك من القرآن قول الله تعالى:

◆﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

◆﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧].

◆﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [المائدة: ٤٨]

◆﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل: ٩٠]

وقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم– أكثر الناس إدراكًا لهذه الغايات الأخلاقية التحريرية الكبرى، التي ترفع من شأن الإنسان، وتعلى من قدره وكرامته، ومما يدل على ذلك قول ربعي بن عامر لرستم قائد جيوش الفرس، الذي قال لربعي: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.."[2].

ومع أن الإسلام يقرر –في وضوح لا لبس فيه– أنه دين عالمي فلقد كان من الواضح فيه أيضًا أنه يبين أنه سيكون من الناس من لا يؤمنون به، ولا يستجيبون لدعوته، وأن العالم – بعد مجيء الإسلام– سيكون فيه من يؤمنون ببعض الديانات السابقة عليه، بل إنه سيتسع لمن لا يدينون بدين أصلا، ويقرر القرآن ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

◆﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

◆﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]

---

(1) صحيح البخاري، طبعة استانبول، تركيا في ثمانية أجزاء١٩٨١م، كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: فلم تجدوا ماء، وصحيح مسلم بشرح النووي، طبعة الشعب، القاهرة، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، في فاتحته ٢/ ١٥٤.

(2) تاريخ الرسل والملوك، لابن جرير الطبري، تحقيق الاستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف، بمصر، ط ٤/ ١٩٧٩جـ ٣/٥٢٠.

◆﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]

◆﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[هود: ١٧]

◆﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا ﴾[الإسراء/ ٨٩، والفرقان: ٥٠]، إلى آيات كثيرة أخرى.

وتتجلى دعوة الإسلام إلى التسامح ورغبته العميقة في تأسيس العقيدة والإيمان على الإقناع والقبول الحر، فيما وضعه من أسس وقواعد تقوم عليها الدعوة إلى الله تعالى.

ويمكن الإشارة إلى عدد من أهم هذه القواعد والمبادئ فيما يلي:

١- أن الدعوة إلى الله عز وجل بالكلمة كانت هي الوسيلة الأولى التي قامت عليها الدعوة. وقد خاطب بها الرسول الناس أفرادًا وجماعات، وحملها إلى الناس في مجالسهم ومنتدياتهم، ومواطن اجتماعهم، وقد بشرهم بها وأنذرهم، وكانت هي وسيلته التي خاطب بها القادمين إلى مكة من المدينة وغيرها، كما خرج بها إلى الطائف حين ضاق بها أهل مكة، وأعرضوا عنها، وحاولوا أن يمنعوا الناس من سماعها. وقد ظلت الدعوة إلى الله بالكلمة هي الوسيلة الوحيدة التي لا وسيلة سواها في تعريف الناس بالإسلام طوال الفترة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عامًا، ما بين سر وجهر، ثم كانت - كذلك- في أول مقام النبي ρ بالمدينة، بعد هجرته إليها، وقد جادل بها أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بالمدينة، أو حولها، ومن النصارى الذين كانوا يفدون إليها كنصارى نجران، وكذلك كانت الكلمة هي التي خاطب بها الرسول ملوك عصره وحكامه في البلاد المختلفة، فيما وجهه إليهم من الكتب والرسائل التي يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام. وقد ظل للكلمة دورها الفعال حتى بعد أن شُرِع الجهاد في السنة الثانية للهجرة، وكان من الأمور التي ينبغي مراعاتها في الجهاد أن يبدأ المسلمون بعرض الإسلام على المخالفين قبل بدء القتال؛ لأن قبولها قد يؤدي إلى الكف عن القتال، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال... فأيتها أجابوك إليها فاقبل منهم وكُفَّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم..."[٣].

وعندما أعطى الرسول لعليٍّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -قال له علي: "يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال -عليه الصلاة والسلام- : انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم"[٤].

---

(٣) سنن أبي داود، مراجعة وضبط الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين ٣/ ٣٧.
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٥/ ٦٧، ٧٧.

وقد كان للكلمة – بما تتضمنه من خير وهدى وحكمة وصلاح– أبلغ الأثر في هداية الناس إلى الإسلام، طائعين غير مكرهين، ومن دلائل ذلك ما جاء في كتب السيرة، والتفسير أنه بلغ أكثمَ بن صيفي مخرجُ النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه، فأبى قومه ذلك، فانتدب لهذه المهمة رجلين، فلما أتيا النبي تلا عليهم قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[النحل: ٩٠] فلما رجعا إلى أكثم، وهو من حكماء العرب في الجاهلية، أسمعاه هذه الآية، فلما سمعها قال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مَلاَئِمِها، فكونوا في هذه الأمر رؤوسا، ولا تكونوا فيه أذنابا"[٥].

ثم كان من أبلغ الدلائل على ذلك أن أول المدن والبلاد التي دخلها الإسلام – بعد مكة التي بدأت فيها الدعوة– قد دخلت في الإسلام دون حرب ولا قتال، وينطبق ذلك على **المدينة** التي أصبحت قاعدة الإسلام، والعاصمة الأولى لدعوته، وقد انتشر فيها الإسلام على يد مصعب بن عمير وبعض معاونيه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات[٦].

وكان ذلك قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) إن مدينة النبي "إنما فتحت بالقرآن، ولم تفتح بالسيف"[٧].

وكان ذلك هو حال **اليمن** التي دخل إليها الإسلام صلحًا لا حربًا، ودعوة واقتناعًا لا قتالا[٨]. ثم كان حال الوفود الكثيرة التي جاءت إلى الرسول معلنة إسلامها دون ضغط ولا إكراه [٩]. ثم إن الإسلام ما زال ينتشر في شرق العالم وغربه حتى الآن، وليس ذلك راجعًا إلى قوة عسكرية، أو سياسية أو تقنية، فليس للعالم الإسلامي الآن – للأسف– حظ كبير من هذا كله، وإنما ينتشر الإسلام بقوة الدعوة، وسلامة الفكرة، ووضوح العقيدة وملاءمة الفطرة، ومخاطبة العقل، ولدينا في مؤتمرنا هذا الذي يعقد في **كوريا** خير شاهد على ذلك. وهكذا يظل للكلمة دورها الفعال في نشر الإسلام، لما لها من أثر في مخاطبة العقل وإقناعه، ودفع ما قد يبدو له من شبهات، ويعبر ابن حزم (٤٥٦هـ) عن هذا المعنى تعبيرًا قويًا، بين فيه أن الحجة الصحيحة أقوى في مواجهة الأعداء من السلاح الشاكي والأعداد الكثيرة؛ لأن السلاح والأعداد قد تهزم، أما الحجة فلا تهزم أبدًا [١٠].

---

(٥) انظر: تفسير ابن كثير، تحقيق الاستاذ عبد العزيز غنيم وآخرين، طبعة الشعب، مصر، د. ت، مجلد ٤/ ٥١٥.

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي –مصر ط ٢/ ١٩٥٥. ١/ ٤٣٤– ٤٣٨.

(٧) زاد المعاد في هدي خير العباد، المطبعة المصرية ومكتبتها، دون تاريخ، ١/ ٤٨.

(٨) انظر في إسلام أهل اليمن. تاريخ الطبري ٢/ ٦٥٥، ٦٥٦.

(٩) انظر تاريخ الطبري ٣/ ١١٥، وما بعدها، ١٣٠– ١٤٦.

(١٠) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، نشرة د/ إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط ١٩٨٣ مجلدا، جـ١/ ص ٢٠.

٢- من الأصول والقواعد المقررة في الإسلام: أنه لا إكراه في الدين، وقد تقرر هذا الأصل في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ & إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[الشعراء: ٣، ٤] ، وقوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهذا نص عام محكم، ليس بمنسوخ ولا مخصوص؛ إذ لا حاجة للإكراه على الدين، بعد أن ظهرت الدلائل، ووضحت البينات، وهذا ما قاله المفسرون المحققون كالطبري وفخر الدين الرازي وابن كثير وأبي حيان وأمثالهم، وكان مما قاله الطبري في تفسيره لهذه الآية "قال بعضهم: نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار، أو في رجل منهم، كان لهم أولاد قد هوَّدوهم أو نصَّروهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام"[١١]. ثم إن الإكراه على الدين أو في الدين ليس بمقبول ولا معقول؛ لأن الإيمان وهو أصل الدين وجوهره عبارة عن "إذعان النفس، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالبيان والبرهان.." كما يقول الشيخ محمد عبده (١٩٠٥م)[١٢].

وقد عبر ابن تيمية (٧٢٨هـ) عن دلالة هذه الآية بقوله "جمهور السلف على أن الآية ليست بمنسوخة ولا مخصوصة، وإنما النص عام... ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله (ρ) أكره أحدًا على الإسلام، لا ممتنعًا ولامقدورًا عليه.. ولا فائدة من إسلام مثل هذا، لكن من أسلم قُبِل منه ظاهر الإسلام" ثم بين ابن تيمية أن النبي " قد أسر من المشركين فمنهم من فداه، ومنهم من أطلق سراحه، ولم يكره أحدًا على الإسلام... والقرآن خَيَّرَ المسلمين – حين يثخنون في الأعداء بين المنِّ على الأسرى أو الفداء"[١٣].

وقد التزم المسلمون – بصفة عامة- بهذه القاعدة الكبرى من قواعد الإسلام، فلم يُعرف عنهم ما عُرف عن أتباع بعض الأديان من إكراه الناس على التخلي عن دينهم، والدخول في دين غيره، وهذا ما يقرره بعض الباحثين المنصفين من غير المسلمين الذين يشهدون بأنه لا يوجد في تاريخ المسلمين إكراه على الدين؛ بل إن التسامح هو الطابع العام لعلاقة المسلمين بغيرهم، ويستدل هؤلاء بأن وجود كثيرين جدًا من الفرق والجماعات المسيحية وغيرها في الأقطار التي ظلت قرونا في ظل الحكم الإسلامي لدليل ثابت على التسامح، الذي نعم به هؤلاء [١٤] وأشار بعض

---

(١١) تفسير الطبري، بإشراف د/ عبد الحميد مدكور، وتحقيق أحمد عبد الرازق، وآخرين. طبع دار السلام- القاهرة، ط ١/ ٢٠٠٥ج/ ٢/ ١٤٩٤، وقد أورد روايات كثيرة، يرفع بعضها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعلق عليها بأن الآية قد تنزل بسبب خاص، ثم يكون حكمها عامًا في كل ما جانس المعنى الذي أنزلت فيه، وهذه الآية من هذا الباب. انظر ٢/ ١٤٩٤. – ١٤٩٨.

(١٢) تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣جـ ٣/ ٢١.

(١٣) انظر تفصيلا جيدًا لهذه الفكرة لدى د/ وهبة الزحيلي في كتابه: العلاقات الدولية في الإسلام، مقارنة بالقانون الدولي الحديث، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ١/ ١٩٨١ ص ١٤، ١٥، والمصادر المذكور بهما.

(١٤) انظر: الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية ط ٣/ ١٩٧٠ ص ٤٦١، ٤٦٢،

هؤلاء إلى أن هناك خلافًا في الاعتقاد بين أتباع المسيحية والإسلام "ولكن لم يمنع هذا الفارق من أن يحترم كل فريق عقيدة الفريق الآخر، وأن يتاح لأهل الكتاب الحياة المدنية المشتركة في ذمة الإسلام، ورعاية حقوقهم الأساسية، وممارسة طقوسهم الدينية"[١٥].

٣- يقرر الإسلام أن الاختلاف بين البشر أمر طبيعي، وهذه مسألة يقررها العلم في حديثه عن الفروق الفردية، فلا يكاد اثنان يتشابهان في كل شيء تشابهًا تامًا يلغي الفروق بينهما؛ بل ان الناس يختلفون في المواهب والملكات والقدرات العقلية والنفسية، والرغبات والطبائع الخلقية، ثم هم مختلفون في أوضاعهم الاجتماعية بما يترتب عليها من تنشئة تربوية وتعليمية. ويتعذر حصر ما بين الخلائق من فروق، ويشير القرآن إلى شيء من ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ &إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقد بين القرآن أن ذلك من آيات سعة القدرة الإلهية وتنوع آثارها"﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ** ﴾ [الروم: ٢٢] وقد ذكر القرآن أن الخلق مختلفون في الشرائع أيضًا، وفي ذلك يقول: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة: ٤٨] ومعنى ذلك أنه ستوجد ديانات أخرى غير الإسلام، ولو كان الإسلام قائمًا على التعصب ونفي الآخر وإقصائه والقضاء عليه لذكر في تشريعاته وأحكامه ما يؤدي إلى تحقيق هذه الغاية، ولكن الإسلام سلك مسلكًا قائمًا على التسامح الذي لا يوجد له نظير فيما عرفه الناس من تاريخ العلاقات بين الأديان.

ويمكن الإشارة بإيجاز إلى بعض العناصر التي يتكون منها الموقف الإسلامي تجاه أهل الكتاب على النحو التالي:

أ- دعا الإسلام إلى أن يكون الاختلاف بين البشر سبيلا إلى التعارف والتكامل الذي يؤدي إلى تبادل المصالح، وتكامل المنافع، وتحقيق الارتباط فيما بينهم. وفي ذلك يقول القرآن ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم نهى أن يكون هذا الاختلاف باعثا على الصراع والبغي والعدوان والظلم الذي قد يسارع إليه بعض الناس دون رويَّة أو حكمة أو عدل ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [المائدة: ٨] وقد دعا بدلا من ذلك إلى التعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[المائدة: ٢] كما دعاهم إلى التسابق في الخيرات التي تؤدي إلى نشر العمران والارتقاء بالإنسان، والانتفاع بما أودعه الله في الطبيعة من النعم ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ [المائدة: ٤٨] وبهذا تتأسس العلاقة على التسابق في الخيرات بدلا من صراع الأديان والحضارات.

وما بعدهما.

(١٥) المسيحية والحضارة العربية، د/ جورج قنواتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دون تاريخ ص ٢٠.

ب- يدعو الإسلام أهل الأديان الأخرى إلى الإيمان به والدخول فيه، ولكنه لا يكرههم على ذلك كما سبق القول، فإذا دخلوا في الإسلام فإنهم ينالون من الله الأجر مرتين، أما إذا لم يدخلوا فيه فإن ذلك لا يدفع الإسلام إلى تغيير موقفه من نبوة أنبيائهم ولا من الشرائع التي جاءوا بها، ولو كان الأمر أمر مواقف بشرية يتم التصرف فيها طبقا لمبدأ المعاملة بالمثل فلقد كان بالإمكان أن يختلف الأمر، ولكننا بإزاء وحي إلهي يعلو على العداوات والضغائن، وينجو من الوقوع في براثن ردود الأفعال. وما دام الحكم للوحي فإن الإسلام يعلن صراحة أنه يتفق مع هذه الأديان الإلهية في أن مصدرها هو الله تعالى، وأنه هو الذي اصطفى هؤلاء الأنبياء لحمل أمانته وأداء رسالته، وقد قرر القرآن ذلك في وضوح عندما قال: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾[الشورى: ١٣] ولذلك فإن الإسلام لا يطالب أتباع هذه الأديان بالكفر بأنبيائهم، وإنما يدعوهم إلى الإيمان بهم، وقد عبر حاطب بن أبي بلتعة الذي بعثه الرسول (ρ) بكتاب إلى المقوقس عظيم مصر والإسكندرية عن هذا الفهم أبلغ تعبير. وجاء ذلك في حواره مع المقوقس الذي قال له: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه. فقال له حاطب: "ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، **ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به**"[١٦].

ولذلك أوجب الإسلام على كل مسلم مؤمن به أن يؤمن بهؤلاء الأنبياء بحيث لا يصح إيمانه إلا إذا آمن بهم، ثم هو يأمر المسلم بتوقير ما أنزله الله على هؤلاء الأنبياء من كتب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ويقول عن التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾[المائدة: ٤٤][١٧].

ويقول عن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[المائدة: ٤٦] [١٨]. وقد ارتضى الإسلام أن يحتكم أهل الكتاب إلى كتبهم، وأن يلتزموا بما أودع الله فيها من الشرائع دون تحريف لها أو تغيير فيها، أو إهمال لبعضها، قال تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾[المائدة: ٤٣] ثم قال ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ** ﴾ [المائدة: ٤٧]

ولا يقتصر الإسلام على ذلك، وهو فيه غير مسبوق، بل إنه يضيف إليه أن الإسلام قد أباح لأتباعه المسلمين أكل

---

(١٦) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٦٠.

(١٧) وانظر الآية ١٥٤ من سروة الأنعام، ١٤٥ من سورة الأعراف، ٤٨ ، ٤٩ من سورة الأنبياء، ١٢ من سورة الأحقاف، إلى آيات أخرى.

(١٨) وانظر الآية ٣ من سورة آل عمران، ٦٦ من المائدة، ٢٧ من الحديد.

طعامهم وأحل الزواج من نسائهم، على الرغم من تقريره للاختلاف في العقائد بينه وبينهم، وفي ذلك يقول القرآن ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** ...﴾ [المائدة: ٥] كما أباح الإسلام إعطاء فقرائهم من بعض الصدقات التي يتطوع بها المسلمون، وقد كان الرسول في أول الأمر يأمر بأن تكون الصدقة في أهل الإسلام، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.."[١٩].

ج- اعترف الإسلام لأهل الكتاب بحظهم من الكرامة الإنسانية التي جعلها الله للنفس البشرية بمقتضى خلق الله لها، وقد ثبت في السنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قام لجنازة مرت أمامه، فلما قيل له: إنها جنازة يهودي، قال: أليست نفسًا"[٢٠].

وقد حرَّم الإسلام قتل النفس بغير حق، وجعل ذلك من العدوان والبغي الذي يورد صاحبه موارد الهلاك، وينطبق ذلك على المسلمين، ومن يدخل في عهدهم، وذمتهم من أهل الأديان وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : من قتل معاهدًا له ذمة الله ورسوله لم يرح رائحة الجنة، وريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا"[٢١].

ثم يخطو الإسلام خطوة أخرى تؤكد سمة التسامح والرحمة فيه، فيوصي أتباعه ببِرِّ غير المسلمين والإحسان إليهم، والعدل معهم، وعدم إيذائهم، ما داموا يكفون عن المسلمين عدوانهم، ولا يؤذونهم في دينهم، ولا يشترط الإسلام لهذا إلا محافظة هؤلاء على حقوق المسلمين الدينية والسياسية وعدم العدوان عليها، وإذا كان المسلمون، وهم أصحاب الدولة والقوة، مكلفين بمراعاة مشاعر هؤلاء، وعدم الاعتداء عليهم أو الإساءة لهم فإنهم يكلفون بمثل ذلك، بطريق الأولى. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ &إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[الممتحنة: ٨، ٩]

ومما يدل على أصالة هذا الموقف القائم على التسامح واحترام عقائد الآخرين الذين تمسكوا بعقائدهم، ولم يدخلوا في دين الإسلام أن الإسلام نهى عن مجادلتهم في عقائدهم، تسليمًا بحقهم في اعتناقها وإتباع شرائعها، وحماية لهم من المنازعة فيها، وقد كان اليهود والنصارى هم الذين بادروا إلى مجادلة المسلمين، وأثاروا من الأسئلة أحيانا ومن الشبهات أحيانًا أخرى ما كان يستدعي الجدال، ويمكن الإشارة إلى مجادلة نصارى نجران للنبي صلى الله عليه

---

(١٩) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧٨، ٤٧٩، بل جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدل على جواز إعطاء ذلك لبعض المشركين، انظر تفسير ابن كثير ٨/ ١١٦، ١١٧.

(٢٠) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي ٢/ ٨٧، وصحيح مسلم، كتاب الجنازة، باب القيام للجنازة ٢/ ٦٢٣، ٦٢٤.

(٢١) سنن ابن ماجه، كتاب الديات، باب من قتل معاهدًا، وفي الباب أحاديث أخرى وفي الباب الذي بعده، وارجع إلى مسند أحمد ٢/ ١٨٦، ٤/ ٢٣٧، ٥/ ٣٦٩، ٤٧٤.

وسلم حول طبيعة السيد المسيح ووصفه بالألوهية عندهم [٢٢]. ومع هذا نهي القرآن عن الدخول معهم في معارك جدلية، فإذا اضطر المسلمون إلى خوض مثل هذه المعارك فليكن الجدال بالتي هي أحسن، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾[العنكبوت: ٤٦] وكذلك نزل أمر الله صريحًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يُعْرِض عن جدالهم، تاركًا أمرهم إلى الله تعالى ليحكم فيهم بحكمه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ثم توج الإسلام هذا كله بدعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء تجمعهم مع المسلمين على الإيمان بأصول العقائد التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، من الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والإقرار بالربوبية له وحده، والاتباع لأمره، والرضا بحكمه، والبراءة من الشرك به، فإذا لم تتم الاستجابة لهذه الدعوة فليعلن المسلمون إيمانهم بهذه الأصول تاركين لسواهم أن يختاروا ما يشاءون لأنفسهم دون قهر ولا إكراه، ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾[آل عمران: ٦٤]

وقد حرص المسلمون على الالتزام بهذه الدعوة إلى ترك جدال أهل الكتاب، مع أنهم كانوا أصحاب الدولة والسلطة والقوة، وهذا من أدل الدلائل على التسامح الذي دعاهم إليه الإسلام، وقد أوردنا من شهادات المنصفين من غير المسلمين ما يؤكد ذلك، ولكن التاريخ يذكر أن بعض هؤلاء، ولا سيما من أهل العلم بالأديان لم يسلكوا المسلك نفسه، فجادلوا المسلمين في عقائدهم، وألفوا الكتب والرسائل في نقد عقائدهم ويمكن الإشارة هنا إلى ما كتبه يوحنا الدمشقي وتيودر أبو قرة، وساويرس بن المقفع وأمثالهم [٢٣]. بل إنهم سعوا إلى عقد مجالس المناظرات والجدال مع المسلمين، مشترطين عليهم أن يجادلوهم بأدلة العقل وحدها، وتقبل المسلمون ذلك بسماحة صدر نادرة المثال، وقد شهدت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد بني العباس مناظرات من هذا النوع، وقع بعضها في مجالس الخلفاء كالخليفة المأمون بن هارون الرشيد [٢١٨هـ] ويحدثنا عن شيء من ذلك أحد المغاربة في رحلته إلى بغداد لطلب العلم بها، فيقول: "رأيت مجلسًا جمع الفرق كلها: المسلمون من أهل السنة... والكفار من المجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر أجناس الكفر، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه، ويجادل عنه، فإذا جاء رئيس من أي فرقة قامت الجماعة إليه، قيامًا على أقدامهم حتى يجلس، فيجلسون بجلوسه.

فإذا غص المجلس بأهله، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه، قال قائل الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة، فلا يحتج علينا

---

(٢٢) ارجع هنا إلى كتب التفسير في تفسير الآيات الأولى من سورة آل عمران، وبخاصة الآيات ٥٩- ٦١ ثم ارجع كذلك إلى بعض الأسئلة التي وجهت إلى الرسول عن الروح (الإسراء: ٨٥) وعن ذي القرنين [الكهف: ٨٣ وما بعدها] إلى غير ذلك من الأسئلة.

(٢٣) يمكن الرجوع هنا -على سبيل المثال- إلى كتاب المسيحية والحضارة العربية للدكتور قنواتي في مواضع كثير منه.

المسلمون بكتابهم، ولا بقول نبيهم، فإنا لا نصدق بذلك ولا نُقرُّ به، وإنما نتناظر بحجج العقل، وما يحتمله النظر والقياس، فيقولون: نعم، لك ذلك" [٢٤]. ولم يقبل علماء المسلمين ذلك استهانة بدينهم؛ بل لثقتهم بصحته وعصمته وموافقته للعقول وجدارته بالقبول.

وقد أثمرت هذه السماحة التي تستند إلى نصوص القرآن نفسه ثمارًا طيبة في مجال العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب وكان من أهم هذه الثمرات ما يلي:

أ- أن كثيرًا من علماء أهل الكتاب قد أسهموا في حركة نقل الثقافات والعلوم من لغاتها الأصلية كالهندية والفارسية والسريانية واليونانية إلى اللغة العربية، مشاركين بذلك في واحدة من أكبر حركات الترجمة في تاريخ الثقافة الإنسانية وقد أسهموا في ذلك لأسباب عديدة [٢٥]. ولكن هؤلاء ما كانوا ليسهموا في هذا العمل الثقافي الكبير - الذي أدى إلى نقل العلوم والخبرة الإنسانية من حضارات متعددة إلى اللغة العربية -لولا شعورهم بهذه السماحة الفكرية التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية، التي لم تعمل على قهرهم وإقصائهم والتضييق عليهم؛ بل إنها عملت على إتاحة الفرصة لهم، وتقبلت إسهاماتهم بالرضا والتقدير المادي والأدبي، ومن ثم فإنهم لم يفعلوا ذلك - كما يقول أبو الحسن العامري - (٣٨١هـ) "إلا لما شاهدوه من قوة الإسلام وشرفه، وما كان قصدهم إلا التقرب إلى الخلفاء الضابطين لعرى الإسلام وقواعده"[٢٦].

وقد كان بعض هؤلاء الخلفاء يزن الكتب المترجمة بالذهب في بعض الأحيان، كما كان يفعل المأمون [٢٧].

ب- أن سماحة الإسلام وذيوع اللغة العربية وانتشارها قد أسهما في أن تكون اللغة العربية هي اللغة التي اختارها ليكتب بها ويؤلف بها جماعات لم تكن مسلمة، وقد وجد هؤلاء أن الكتابة بالعربية تؤدي إلى حفظ علمهم وإذاعته بين الناس، ويقرر جورج سارتون -أحد كبار مؤرخي العلم في العالم - ذلك عندما وصف علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى بأنها" كانت علاقات ودية، أو على الأقل لا عدوان فيها؛ لأن المسلمين عاملوا رعاياهم بكل رحمة وسماحة، وبعنايتهم وتشجيعهم نشرت بحوث كثيرة، وأعمال علمية باللغة العربية، ألفها غير مسلمين، منهم صابئون ونصارى ويهود وسامريون... وحتى نهاية القرن الثاني عشر كانت العربية لغة اليهود الفلسفية

---

([٢٤]) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى الضبي طبع مجريط ١٨٨٤ م ص ١٤٥، ثم يحدثنا الرجل نفسه عن مجلس آخر مماثل، موضحًا أن ذلك كان أمرًا معتادًا في بغداد، انظر ١٤٤- ١٤٦ من الكتاب نفسه.

([٢٥]) انظر: في الفلسفة الإسلامية: مقدمات وقضايا، لكاتب هذا البحث. نشر دار الثقافة العربية ٢٠٠٠ ص ٧١- ٧٤.

([٢٦]) الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق د/ أحمد عبد الحميد غراب، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة ط ١ -١٩٦٧ ص ١٨٢، ١٨٣.

([٢٧]) انظر مثلا: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، تحقيق د/ نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٤.

والعلمية"[٢٨].

وقد اختار المسيحيون بالأندلس أيضًا اللغة العربية لتكون لغتهم التي يكتبون بها، ويعبرون بها عن أفكارهم وإبداعاتهم، وقد كان ذلك موضع شكوى أهل التعصب منهم، وهذا أحدهم ويسمى ألفارو، يشكو من ذلك قائلا: "يطرب إخواني المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة... لا لتفنيدها، بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق. ... إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا على علم بأي أدب ولا لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة، تكلفهم نفقات باهظة" [٢٩].

وإذا كان الحديث قد انصبَّ – فيما سبق– على إبراز صفة التسامح في علاقة الإسلام بأهل الكتاب في جوانبها الدينية والثقافية والاجتماعية فإننا يمكن أن نضيف إلى ذلك جوانب أخرى من التسامح التى اتخذها الإسلام تجاه المشركين أنفسهم، ولايتسع المجال لكثير من الإفاضة في القول، ولكننا نكتفى بإيراد بعض الآيات والمواقف التى تلقى ضوءًا على هذا المجال، دفعًا لسوء الفهم، أو سوء النية التى تتبدَّى في بعض الكتابات ذات الغايات السياسية المتحيزة عن الإسلام، وهى تصفه بما ليس فيه، وتنسب إليه أخطاء بعض المنتسبين إليه، والإسلام منها براء، ومن الآيات التى يمكن التعرف منها على موقف الإسلام – بصراحة ووضوح – مايلى :

◆﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [ الأحزاب :٤٨، وهى سورة مدنية].

◆﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ& فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [ الزخرف ٨٨ ، ٨٩].

◆﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾[ النساء : ١٤٠، وهى سورة مدنية ].

– ويقول الله تعالى في سياق الحديث عن المنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت رافضين التحاكم إلى شريعة الله تعالى ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [ النساء : ٦٣ ] ثم يقول القرآن عنهم مرة أخرى ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ [ النساء : ٨١].

---

(٢٨) تاريخ العلم والإنسية الجديدة، ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر، دار النهضة العربية ١٩٦١ ص ١٦١ وانظر: علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال، ترجمة د/ صالح العلي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٢ / ١٩٨٣ص ٤٦.

(٢٩) حضارة الإسلام، لجرونيباوم، ترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، ص ٨٢، ٨٣، وانظر تاريخ الفكر الأندلسي، لبالنثيا، ترجمة د/ حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، ٤٨٥، ٤٨٦.

والآيات الدالة على هذا المعنى من الرفق والتسامح كثيرة، ولاسيما بالنسبة لعامة الناس ممن ليسوا بمحاربين ولامعتدين، وهى تبطل هذه الصورة الكئيبة الجائرة التى يراد تصوير الإسلام بها، من كونه دينا يقوم على قهر الآخرين وإجبارهم على اعتناقه، وقتلهم إذا لم يدخلوا فيه، ومطاردتهم بالإيذاء والإرهاب، وهو ادعاء باطل لايتفق مع عقيدة الإسلام وشريعته وتاريخ دعوته، وسيره نبيه، وسلوك أصحابه والمتأسين بسيرته، ويكفى للدلالة على ذلك الإشارة إلى قول الرسول عن سأله : أى الإسلام خير؟ : " تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" [٣٠].

وقوله – عندما سئل : أى المسلمين خير – : من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٣١] وفي بعض روايات الحديث : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده "[٣٢] . وهكذا يمتد السلم والتسامح والتعايش إلى كل بنى البشر من المسالمين غير المعتدين؛ بل يمتد السلم والرفق إلى الحيوان، وقد وردت في هذا الباب أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم : دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض "[٣٣].

ويكفى أن نذكر موقف واحدا من المواقف التى وقفها الرسول(ε)من أعدائه المشركين الذين آذوه وحاولوا قتله، وآذوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا : ربنا الله، وهو موقف بليغ ناطق بمدى التسامح الإسلامى في أعلى منازله وأجلى صوره، نقصد بذلك موقفه من مشركى مكة، بعد أن أنعم الله عليه بفتحها بعد ثمانى سنوات من هجرته إلى المدينة، فعندما تم الفتح اجتمع له الناس في الكعبة، ثم خطب فيهم خطبة، كان منها:" ... يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتَعَظُّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** .... ﴾[ الحجرات : ١٣ ] ثم قال : يامعشر قريش: ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا : خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء" [٣٤].

وهكذا وصل التسامح والعفو إلى القمة، وسما الرسول(ε) فوق النوازع الذاتية الفطرية التى تستشعرها النفوس في مثل هذا الموقف، الذى تمكن فيه الرسول من خصومه الذين آذوه وأخرجوه وقاتلوه، وسعوا إلى القضاء عليه وعلى دعوته، ومع ذلك عفا عنهم، وأطلق سراحهم، فلا ثأر ولا انتقام، وهذا موقف لا نظير له فيما يعرفه الناس من تاريخ

---

([٣٠]) صحيح البخارى، كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام ٩/١، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ٢١٤/١.

([٣١]) صحيح البخارى : كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده٨/١ وصحيح مسلم في الموضع السابق ٢١٤/١.

([٣٢]) مسند أحمد ٢٢٤/٢، ٣٧٩، ٣/ ٤٤٠، ٦/ ٢١.

([٣٣]) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ١٠٠/٤، وانظر مثله في مسند أحمد ١٥٩/٢، ١٨٨.

([٣٤]) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢ وعندما قام رجل من قبيلة خزاعة، وهم حلفاء النبى، بقتل رجل من المشركين بمكة بعد الفتح نهاهم الرسول (ε) عن القتل والقتال، وقام بدفع دية هذا القتيل. انظر المرجع نفسه ٤١٥/٢، ٤١٦.

الفتوحات والحروب، والعلاقات بين الأعداء والخصوم[٣٥].

وأخيرا يمكن القول بأن البشرية – على اختلاف أجناسها وثقافاتها وحضاراتها – تنحدر من أصل واحد، وتواجه مصيرا واحدا، وأبناؤها يعيشون على كوكب واحد، ويواجهون ظروفا مشتركة، وأولى لهم أن يعملوا على تحقيق التعايش في ظل ثقافة التسامح والتعاون والحوار، بدلا من الحديث عن ثقافة الصراع والهيمنة والحروب. وليس هناك من شيء نختم به هذه الكلمات أفضل من أن نستحضر هنا دعاء كان يدعو به الرسول عقب الصلاة، وفيه يقول: اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك ... ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك، ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة " [٣٦].

وهو دعاء يخترق حجاب الزمان والمكان، وتصلح به حياة البشرية في كل حين، ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [ يوسف : ٢١]

**والحمد الله رب العالمين**

---

(٣٥) أما الجهاد فقد شُرع تشريع الوسائل، لاتشريع الغايات والمقاصد، ومن ثم فليس مقصودا لذاته؛ بل إنه شرع لرد الاعتداء، ونصرة المظلومين، ومقاومة الفتنة في الدين، كما شُرع لنصرة الدعوة، وضمان توصيلها إلى المدعوّين، ولذلك لا يتجه القتال إلا إلى المقاتلين في ميادين القتال، أما غير المقاتلين والمحاربين فلا يصح التوجه إليهم بقتال، وينطبق ذلك على العُبّاد فى معابدهم، والعمال في مصانعهم، والزراع في مزارعهم، والعجزة والنساء والأطفال وأمثالهم من غير المحاربين، وقد جاءت في هذه الأمور كلها آيات وأحاديث كثيرة تحتاج – في عرضها والبرهنة عليها – إلى تفصيلات كثيرة، لايتسع لها المقام .

(٣٦) مسند أحمد ٤/ ٣٦٩.